حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد السابع . شوال ١٤٣٨هـ / تموز ٢٠١٧م

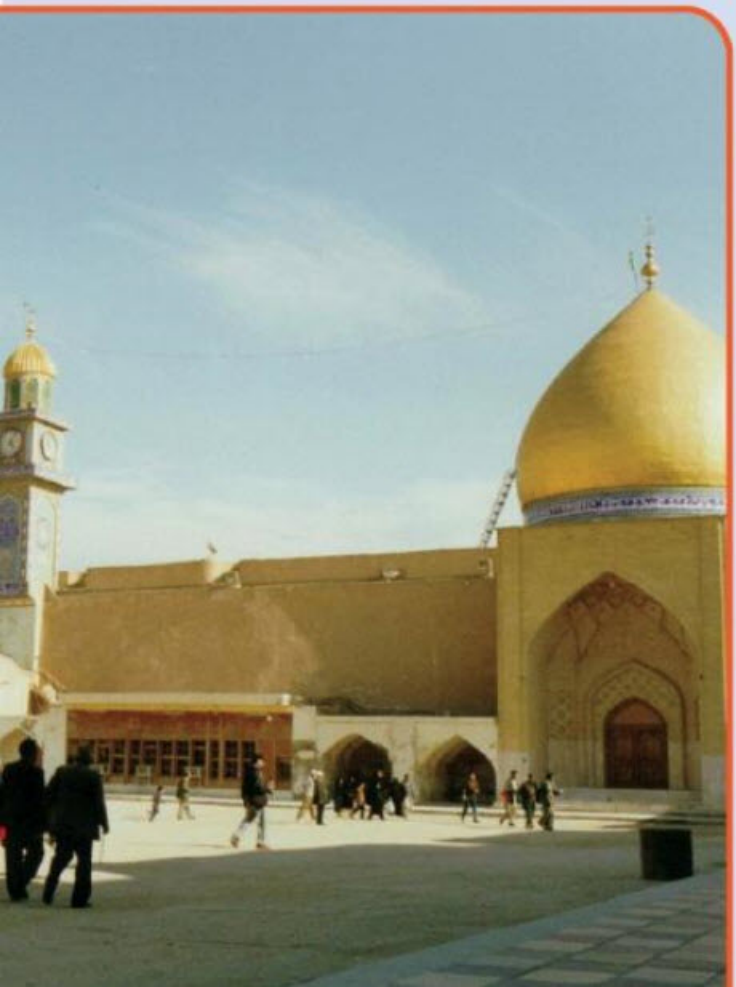

٧

دار الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكنـاســة...
أين هي من الكوفة ؟

الأستاذ طالب علي الشرقي
الرئيس الأسبق لاتحاد الأدباء في النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

في قراءة متجددة لآثار ومآثر أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

يقف المتتبع مبهوراً أمام انفراداته العبادية ومنجزاته المعرفية وبطولاته الجهادية وعدالته المثالية وإلى ما لا يحصى من الفضائل فهو ربيب المصطفى (صلى الله عليه وآله) وتلميذه وزوج ابنته ووالد سبطيه الإمامين الحسن والحسين (عليهما السلام) والفادي والمبلّغ وحامل لوائه في جميع حروبه وغزواته، وصفيّه وخليفته والممثل الأمثل لسيرته...

هو الآية العظمى ومستنبط الهدى

وحَيرة أرباب النهى والبصائر[1]

كما يستوقفه اختيارُه (عليه السلام) مدينة الكوفة عاصمة لحكومته بعد معركة الجمل سنة ٣٦ هجرية، بعد دحر الناكثين ومن تابعهم وأعان على إذكاء نار الفتنه وكان النصر لأمير المتقين على خصومه في معركة قادها الحقد وعمى البصيرة والطمع.

لقد كان اختياره ايجابياً فرضته ظروف موضوعية في حينها. ولقد أحبها وقال فيها : " الكوفة جمجمة الإسلام وكنز الإيمان وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء ". وقال أيضاً : " والله إن الكوفة لَلهجرة بعد الهجرة، وإنها لقبة الإسلام "[2].

والحديث عن الكوفة هنا يخرجنا عن صلب الموضوع ولا يسلم من التكرار فقد حظيت الكوفة بدراسات وبحوث غاية في الدقة والأهمية يوم كانت تشكل الثنائي الحضاري الإسلامي في العراق بعد الفتح – البصرة والكوفة – وهما الحاضرتان اللتان نهضتا بأسباب التفوّق على مختلف العلوم والفنون والآداب والعمارة والحضور الفاعل في الحياة السياسية والقوة العسكرية في شرق الدولة الإسلامية، واختلفتا عقائدياً، فكانت البصرة عثمانية الهوى والكوفة علوية الظاهر..

والذي يلفت نظر الباحث لمعانٌ ضاحيةٍ أو معْلَمٍ من تلك الحاضرة على حساب بقية أجزائها كقصر الإمارة والمسجد الجامع الكبير ورحبة علي، والكناسة على سبيل المثال. وهذه الأخيرة مرّت بأحوال مختلفة وقد اختلف المؤرخون في موقعها. وبسبب ذلك الاختلاف بل التقاطع الحاد بين رأي الشيخ الشرقي ورأي السيد البراقي أو من تدخّلَ في متن كتابة " تاريخ الكوفة" بخصوص تعيين مكان الكناسة، المحلّة المشهورة في مدينة الكوفة؛ اندفعتُ إلى المراجعة والتحقيق للوقوف على الممكن من الحقيقة.

يقول الشاعر علي الشرقي في حال الكناسة : (كانت أولاً تُعرف بكناسة أسد، ثم صارت محلّة أو سوقاً أو محطة تجارية كبرى للعرب، وهي في الكوفة مثل المربد في البصرة، وموقعها من المدخل الغربي للكوفة، وفيها تمركزت الأشغال التجارية مع البلاد العربية، فكانت موضعاً للحمولة توضع فيها الأحمال وترفع منها، وكان في ناحية من نواحي الكناسة أسواق البراذين تجري فيها المعاملات على الماشية من بغال وحمير وأبل، بيعاً واكتراء من قبل النخاسين وهناك يباع الرقيق. وكان في الكناسة محل للشنق، وفيه عُرض جثمان زيد بن علي، واليوم توجد بناية قائمة بين مسجد سهيل (السهلة) قريبة منه وبين مسجد الكوفة يؤمها الناس، وتعرف باسم زيد بن علي،

(١) صاحب المدارك / القصائد السبع العلويات لأبن أبي الحديد ص٣٢
(٢) أ.د. حسن عيسى الحكيم / الكوفة بين العمق التاريخي والتطور العلمي ص ٤٧

ويعتقدون إنها المحل الذي عرض فيه جثمانه شنقاً، فيكون موقع الكناسة اليوم بين مسجد السهلة ومسجد الكوفة)[١].

أما الرأي الآخر الذي تبناه السيد البراقي أو من حقق كتابه فيقول : (هذا كلام الأستاذ الشرقي حول الكناسة وتعيين موقعها، ومن الغريب جداً صدور ذلك منه. فإنّا لم نعهد اليوم ولا قبل اليوم بناية قائمة بين مسجد السهلة والكوفة يؤمها الناس، وتعرف عندهم باسم زيد بن علي كي يعتقد أحدٌ إنها المحل الذي عُرض فيه جثمانه شنقاً، فيحكم الأستاذ إنه موقع الكناسة، وإنما البناية التي توجد اليوم هناك هي مسجد زيد بن صوحان، صاحب الإمام علي (عليه السلام)، وهي التي يؤمها الناس..

إن السيد البراقي أو مَن حقق كتابه يعتمد ما قاله السيد عبد الرزاق الموسوي المقرّم في كتابه " زيد الشهيد " في صفحة ١٥٣ : (ليس بالهيّن معرفة موقع الكناسة، مع ما لها من الشهرة وتكرر الذكر في صفحات التاريخ بمناسبة الحوادث الواقعة فيها، إذ لم تكن خارطة تخطط أرجاءها، ولا بقيت من آثارها ما يتعرف بها الأحوال... وحتى الآن لم يتسنَّ لنا شيء من تلك القرائن سوى ما وجدناه في " فلك النجاة " للعلامة الحجة السيد مهدي القزويني (قدس سره)، يقول فيه : (إن المشهد المعروف لزيد بن علي الذي يزار ويُتبرك به، محل صلبه وحرقه) هذه الكلمة من سيدنا البحاثة يجب الاحتفاظ بها لما هو المعهود من غزارة علمه وسعة إحاطته وقد وثق بها وأرسلها إرسال المسلّمات، آخذاً عن أوثق المصادر المتوفرة عليه، لذلك لم تترك لنا منتدحاً عن الإذعان بها بأن المشهد القائم في شرقي قرية ذي الكفل واقع في محل الكناسة)[٢].

أما الشيخ محمد حرز الدين فيقول : مشهد زيد بن علي.. يقع في الشرق الجنوبي لقرية الكفل، يبعد بحدود الفرسخين عنه، وهذا المشهد هو موضع دفنه وإقباره... فإنهم بعد شهادته دفنوه ليلاً تحت نهر جارٍ في بستان رجل اسمه زائدة – كما في أمالي الصدوق – بعد أن سكّروا ماء النهر من جريانه وحفروا فيه قبراً ووضعوا جثمانه الطاهر فيه، وألقوا عليه الحشيش ثم أهالوا عليه التراب وأجروا فيه الماء، حيث لم يتمكنوا من نقله فيشاهَد، خشية من أن يمثل فيه أعداء الله ورسوله، وكان معهم عند الدفن غلام سندي لبعضهم، فذهب في غده إلى يوسف بن عمر والي الكوفة ورئيس شرطته، وأخبر بموضع دفنه، فبعث يوسف بن عمر العباس بن سعيد المزني، فنبشوا القبر وأخرجوا جسده الطاهر وحملوه على جمل، وكان عليه قميص هروي، فألقي بباب قصر الإمارة فخرَّ كأنه جبل ؛ أمر يوسف بن عمر بقطع رأسه، فقطع، وصلب بدنه الشريف منكوساً بسوق الكناسة في الكوفة مع جملة من أصحابه، وبقي مصلوباً على الخشبة سنتين، وبعد هذا كله أنزلوه وأحرقوه في كناسة الكوفة جنوب تل تراب[٣].

إذن : نحن أمام رأيين مختلفين على بقعة جغرافية كان لها شأن في تاريخ الكوفة، ولا نملك إلا الرجوع إلى بعض المصادر المعتبرة لترجيح أحد الرأيين، فنبدأ بالخبر الذي أورده صفي الدين محمد بن معد الموسوي الذي رآه في بعض الكتب الحديثية القديمة : (...حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد – المعروف بإبن عقدة – قال حدثنا... قال : أخبرني أبو حمزة الثمالي قال : كنت أزور علي بن الحسين في كل سنة مرّه، فأتيته سنة من ذلك، وإذا على فخذه صبي، فقعدت إليه، وجاء الصبي فوقع على عتبة الباب فانشج، فوثب إليه علي بن الحسين (عليه السلام) مهرولاً فجعل ينشف دمه ويقول له : يا بُني اعيذك بالله أن تكون المصلوب في الكناسة، قلت : بأبي أنت وأُمي، وأي الكناسة ؟ قال كناسة الكوفة، قلت : جعلت فداك، ويكون ذلك ؟ قال : إي والذي بعث محمداً بالحق، إن عشت بعدي لترَيَنَّ هذا الغلام في ناحية من نواحي الكوفة مقتولاً مدفوناً منبوشاً مسلوباً مسحوباً، مصلوباً في الكناسة، ثم يُنزل فيحرق ويدق ويذرى في البر، قلت : جعلت فداك :ما أسم هذا الغلام ؟ قال هذا إبني زيد)[٤].

نستفاد من هذا النص : إنّ القتل والدفن والنبش كان في ناحية من نواحي الكوفة، ربما هو مشهده الحالي شرقي ذي الكفل، وإنّ صلبه في الكناسة – كناسة الكوفة بالتحديد –

إنّ لفظ الكوفة إذا أُطلق لا يراد به إلاّ الحاضرة التي يتوسطها المسجد الجامع الكبير وليس الأطراف والنواحي المعدودة ضمن حدودها الجغرافية فلكل جنبة إسمها، وهذه معاجم اللغة العربية والكتب البلدانية تؤكد كون الكناسة في الكوفة حصراً، فابن منظور في لسان العرب يقول : الكناسة اسم موضع في الكوفة[٥]. وبمثله يقول الفيروز آبادي في القاموس المحيط وياقوت الحموي في معجم البلدان يقول :

(١) السيد حسين (حسون) البراقي تاريخ الكوفة / تحقيق محمد صادق بحر العلوم ص١٤٨ – ١٤٩
(٢) المصدر السابق ص ١٤٩ – ١٥٠
(٣) الشيخ محمد حرز الدين / مراقد المعارف ١ : ٣٢١ – ٣٢٢
(٤) السيد ابن طاووس / فرحة الغري ص٢٦٠ – ٢٦٢
(٥) ابن منظور / لسان العرب – مادة كنس–

الكناسة : هي محلة في الكوفة[١]. ولفظ محلَّة يعني جزءاً من البلدة وليس ناحية تابعة لها إدارياً أو سياسياً.

وفي رواية عن المفضل بن عمر – تلميذ الإمام أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) – قال : كنت مع أبي عبدالله (عليه السلام) بالكوفة أيام قدومه على أبي العباس – السفاح – فلما انتهينا إلى الكناسة فنظر عن يساره ثم قال : يا مفضل ها هنا صلب عمي زيد رحمه الله[٢].

نعود إلى كتاب السيد البراقي – تاريخ الكوفة – وما جاء فيه من أخبار حول موقع الكناسة، وما أنكره على الشيخ الشرقي من وجود بناية قائمة بين مسجد السهلة ومسجد الكوفة يؤمها الناس، وتُعرف باسم زيد بن علي، ويرى أنّ البناية هي مسجد زيد بن صوحان معتمداً على قول المجلسي الذي وصفه بالمسجد الصغير الذي بين يدي مسجد السهلة. والحقيقة إن المسجد الذي بين يدي مسجد السهلة هو مسجد صعصعة بن صوحان، وهو صاحب أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) صلى فيه أمير المؤمنين فزاده بركة وشهرة، علماً بأن السيد البراقي لم يذكر لزيد بن صوحان مسجداً بين المساجد المباركة في الكوفة على العكس من مسجد أخيه صعصعة فقد عقد له موضوعاً منفرداً[٣]. ثم أن زيد بن صوحان كان في الكوفة، وعندما استنفر داعي الجهاد أهل الكوفة لنصرة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) التحق زيد بن صوحان بجيش الإمام في البصرة، وربما لم يلتق بالإمام إلاّ في البصرة، وقاتل مع علي في معركة الجمل، وقتل فيها (رضي الله عنه)، كما لم تعرف له صحبة مع أمير المؤمنين كصحبة أخيه صعصعة المتوفى سنة ٦٠ هجرية وكان من المقربين لأمير المؤمنين (عليه السلام) وقد بعثه الإمام (عليه السلام) مفاوضاً معاوية بن أبي سفيان بخصوص منع جند الشام جيش الإمام علي من الماء بعد أن استولوا عليه في معركة صفين[٤]. ففي الطبقات الكبرى لأبن سعد[٥]. لم يذكر لزيد بن صوحان صحبة مع أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)، وقد ذكر له لقاءً برسول الله (صلى الله عليه وآله) وبالخليفة عمر ابن الخطاب وبالخليفة عثمان بن عفان. وفي تهذيب ابن عساكر[٦].

(١) ياقوت الحموي / معجم البلدان ٤ : ٤٨١
(٢) الدكتور حسن عيسى الحكيم / المصدر السابق ص٥٦ عن تفسير العياشي ٢: ١٤٤
(٣) السيد البراقي / اليتيمة الغروية... ص٧٨ – ٨٢
(٤) الطبري / تاريخ الطبري ٤ : ٥٧١ – ٥٧٢
(٥) ابن سعد / الطبقات الكبرى ٦ : ٨٤
(٦) تهذيب ابن عساكر ٦ : ١٢

لم يذكر لزيد صحبة مع الإمام علي (عليه السلام) وذكر له لقاءه برسول الله وبالخليفة عمر بن الخطاب وبالخليفة عثمان بن عفان.

نعم : كان من الموالين للإمام علي ومن شيعته، وقاتل معه في واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل فيها هو وأخوه سيحان ودفنا في قبر واحد.

إن البناء الذي يرى السيد البراقي أو محقق كتابه، أنّه مسجد زيد بن صوحان يمكن أن يكون هو البناء الذي أشار إليه الشيخ الشرقي وقد دخل على اسمه التحريف أو التبديل فتحول من زيد بن علي إلى زيد بن صوحان وهو بعيد نسبياً عن مسجد السهلة وليس بين يديه، والمرجح أنه يقع شمال شرق مسجد صعصعة، وإن مسجد صعصعة – كما يقول المحقق الدكتور كامل سلمان الجبوري يقع شرق مسجد السهلة على يمين الذاهب إليه من مسجد الكوفة، أما المسجد الذي ينسب إلى زيد بن صوحان فيقع جنوب مسجد السهلة على يسار طريق الكوفة – السهلة[٧]. أما الذي نقله السيد المقرّم (رحمه الله) من " فلك النجاة" للسيد القزويني (رحمه الله) من أنْ يكون المشهد القائم لزيد في شرقي قرية الكفل في محلة الكناسة فهو مستبعد جداً...

ومن الدلالات التي نهتدي بها لتعيين محلة الكناسة الأخبار الكثيرة الواردة بخصوص مكان شنق جثة زيد بن علي، ومعلوم أنّ الشنق يراد به إخافة الخصوم، ولكي يكون المصلوب عبرةً... وهو يحتاج إلى اختيار المكان الذي يتواجد فيه الكم الأكبر من الناس، فهل كان المكان الذي يحتله مشهد زيد بن علي شرقي قرية الكفل كذلك ؟

المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون في دراسته لضاحية الكناسة المندرسة في كتابه " خطط الكوفة وشرح خريطتها" يختلف مع ما وردَ في كتاب تاريخ الكوفة للسيد البراقي بخصوص موقع الكناسة، ويتفق كثيراً مع الشيخ الشرقي، فيقول : كانت أولاً كناسة لبني أسد، أي محل رمي الأنقاض – المزبلة – لهذه القبيلة عند مخرج الكوفة من الغرب، ثم أصبحت تجارة النقليات وصناعتها متمركزة هناك، ولأنها مناخة لإبل القوافل، وموضعاً لتحميل البضائع وتفريغها.

ونظير هذا المحل كان يسمى بالبصرة " المربد" وكان يوجد هناك من ابتداء الأمر سوق البراذين، وفيه كانوا يشترون

(٧) لويس ماسنيون / خطط الكوفة... تحقيق كامل سلمان الجبوري ص ٢٥ – ٢٦ هامش ٣٣، ٣٤

ويستأجرون الحمير والبغال والإبل... والقبائل التي سكنت الكناسة هي : عبس وضبة وتميم...، والسكة التي كانت تمتد من الكناسة إلى السجن القديم سميّت سكة شبث نسبة إلى الخارجي شبث بن ربعي، وكذلك كان بنو حمام وبنو الشيطان – حنظلة – يسكنون الكناسة، وبعد زمن سكنت الكناسة بعض بطون من أسد[1].

ولو أنعمنا النظر فيما أفادنا به ماسنيون في مقدمة كتابه " خطط الكوفة " لوجدنا أنه يقول : وهذه الخريطة ليست سوى ترسيم وتخطيط بسيط وأنا لم أخفِ فيها النواقص ولم أستر النقاط المشكوكة بل وضعتها كما هيَ[2] يعني من الممكن أن تكون بعض الأسماء التي وردت في هذا الكتاب والتي لم يعتمدها المؤلف من مصادر قديمة موثوقة أو بقايا أثر معروف هي عرضة للوضع والتحريف والتصحيف، ليس من قلمه بل من أفواه المخبرين في ثلاثينيات القرن العشرين.

وهناك إشارة مهمة ذكرها الدكتور الآثاري كاظم الجنابي في حديثه عن مساجد الكوفة يقول فيها : إن الكوفة لم تقتصر في تخطيطها على المسجد الجامع وحده بل خُطّت مساجد أُخرى صغيرة للقبائل حسب موضعها لتيسير العبادة على المصلين... وقد هُدمت جميع المساجد القبيلية في الكوفة، ولم يتخلف عنها إلاّ مسجد السهلة الذي ما زال ماثلاً حتى اليوم[3] أي من المحتمل كون الذين أعادوا بناء بعض تلك المساجد المنهدمة في القرون المتأخرة قد أطلقوا عليها أسماء غير مؤكدة يغلب عليها الانقياد إلى خبر أو رواية خالية من تثبيت الموقع. وحين استعرض الدكتور الجنابي المساجد الصغيرة – المباركة والملعونة – لم يذكر مسجداً لزيد بن صوحان.

إن عدم الذكر لا يعني عدم الوجود بل يعني عدم الظهور الجلي، وإذا ما وقفنا على ما ذكره الشيخ محمد حرز الدين نجده يقول : " وكان لزيد بن صوحان مسجد ومحراب يُعبد الله فيه بالكوفة ويقع في الجنوب الغربي لمسجد السهلة – مسجد بني ظفر – قريب منه ومن الخندق – كري سعد بن أبي وقاص – وقد طرأت على هذا المسجد عدة عمارات وهو اليوم باق رسمه[4].

وهكذا يرتفع اللبس وتتضح الصورة بأن البناية التي أشار إليها الشيخ الشرقي ليست مسجداً لزيد بن صوحان، وإن كناسة الكوفة تقع بين مسجد الكوفة ومسجد السهلة وليس في شرقي قرية الكفل..

❖ ❖ ❖

(١) المصدر السابق ص١٢٤
(٢) المصدر السابق ص١٥

(٣) د. كاظم الجنابي / تخطيط مدينة الكوفة.. ص٨٧ – ٨٨
(٤) الشيخ محمد حرز الدين / مراقد المعارف ١ : ٣٢٠